قراءة فى أوراق مُدرسة !!

دكتور/ سعيد اسماعيل على

الحق أقول ..

ليس لى فضل كبير فى كتابة هذه السطور التالية .

وان كان هناك من دور قمت به ، فهو ما يتعلق بالفكرة ، والمبادأة ، والحفز .. وأخيرا النقل .

لقد درجت العادة بالنسبة الينا أساتذة التربية وعلم النفس ، أن نوجه طلابنا نحو محاولة الاجابة عن سؤال مصيرى كبير وهو : كيف نربى ؟ لأن طلابنا هؤلاء سوف يكونون مربين فى مستويات تعليمية مختلفة . وفى مرحلة الدراسات العليا (قبل الماجستير والدكتوراه) نحملوا بهم خطوات أخرى للتعمق والتخصص فنكلفهم ببحوث صغيرة ومقالات فى بعض القضايا التربوية والمشكلات النفسية ، محورها الأساسى أيضا هو : كيف نربى ؟

لكن سؤالا قفز الى ذهنى :

ان السؤال : كيف نربى يتعلق ، غالبا ، بالمستقبل ، أفليس من الضرورى كذلك أن نتجه الى الحاضر .. الى الواقع ، لنسأل : وكيف تربينا ؟

واذا كان هؤلاء الطلاب نعدهم ليكونوا مربين ، أليس مهما أن نتوقف لنسألهم هم أنفسهم كيف تربوا ؟

واذا صحّ ذلك ، فمن الذى يجيب عن هذا السؤال ؟

هم أنفسهم !!

ومن هنا جاء اقتراحى لهم :

لست أريد بحثا تضطرون لكتابته أن تغوصوا فى بطون الكتب والمصادر المختلفة ، وأنما أريد (تقريرا) ، تتطلب كتابته منكم أن تقوموا بالغوص فى بطون أيامكن الماضية، لتسجلوا صورة ذاتية لمسيرتكم ، منذ أن كنتم أطفالا ، فطلابا فى مراحل التعليم المختلفة ، فممارسين لمهمة التعليم .. مع التعليق وابداء الرأى فيما حدث : الى أى حد كان صوابا أو خطأ ؟ ولماذا ؟

وكانت المحصلة ، مجموعة كبيرة من الأوراق التى تميزت بقدر كبير من الصدق والمصارحة فى الغالب والأعم ، فقد عرف كاتبوها مقدما أنها لن تقدم الى أى جهة ، ولن

يطلع عليها أحد الاكاتب هذه السطور ..

ولاأظن أنى أخل بالعهد عندما أقرأ على القراء بعضا مما فى هذه الأوراق ، فالمواقع والأسماء غير معلنة ، وانما المعلن هو الوقائع والأحداث ، وبالفعل ، فليس المهم اسم هذا أو ذاك ، وانما المهم هذه الواقعة أو تلك

والعينة التى أعيد قراءتها هى لمجموعة من : المدرسات ..

وتعالوا نقرأ سويا ...

سذاجة برامج الأطفال :

،، كنت طفلة صغيرة عندما أخذنى والداى معهما حيث سافرا العمل باحدى دول الخليج .. وفى العطلات ، كنت أتلهف كثيرا لمشاهدة برنامج للأطفال فى التلفزيون ، على عكس الحال عندما كنا فى مصر ، فقد كرهت مشاهدة مثل هذه البرامج ، لأنها كانت تفترض فينا سذاجة مبالغ فيها ويجىء التوجيه فيها مباشرة بطريقة منفرة : ،، لازم نشرب اللبن ،.. لازم نسمع كلام بابا وماما ،، ،، صاحبتى فاتن - مثلا - بتسمع الكلام ، علشان كده أنا بحبها وحجيب لها هدية حلوة قوى ، وعلشان كدة لازم كل الأصحاب يعملوا كدة زى فاتن ،، .. لقد كنت أضحك حينما أسمع مثل هذا الكلام...

وأنا الآن أتساءل بالفعل : هل يقتنع الأطفال بما يقدمه لهم تلفزيوننا المصرى من برامج لهم ؟ لقد كان التلفزيون فى القطر الذى أقمنا فيه يقدم برنامجا اسمه : (افتح ياسمسم) .. كان برنامجا رائعا حقا .. لم يقدم المعلومة للطفل بشكل مباشر : اشرب اللبن .. اسمع الكلام .. نم مبكرا .. ولكنه كان عبارة عن مجموعة قصص تتعلق بمواقف يمثلها مجموعة ممثلين : أطفال وكبار .. هؤلاء الأفراد يعيشون حياة عادية يمثلونها كمسلسل ، ومن خلاله يخطئون : قد يخطى الأطفال ، وقد يخطئ الكبار ، ويتعلم كلاهما خطأه ، ويستفيد منه ، فيعرف الطفل الخطأ والصواب ، ولكن بصورة غير مباشرة .

لقد كان برنامجا محببا ، ليس للأطفال فقط ولكن للكبار كذلك لأنه ظريف وممتع وهادف. كان يهتم بغرز قيم متعددة لدى الأطفال ، كالصدق والأمانة ، ويعرف الأطفال بجميع المهن وأهمية كل مهنة فى المجتمع . وفى احدى الحلقات ، مثلا ، كانت مهنة (جامع القمامة) ، يلتف حوله الأطفال ويعرفوا مهنته .. احترموه وصفقوا له .. ووضح البرنامج ، كيف أنه بدون هذا الرجل لصارت شوارعنا وبيوتنا فى أسوأ حال ..

زراعة الخوف :

،، عندما كنت تلميذة ، كانت مدرستنا (الابتدائية) مشتركة بالطبع ...

أتذكر أحد الأيام غابت فيه مدرسة الفصل وتركتنا ادارة المدرسة بدون مدرسين ، فقام أحد التلاميذ المشاغبين والأشقياء بحركة لاتنسى ، حيث ذكر أنه يوجد عفريت بالمدرسة ، فأصاب الرعب الفصل كله ، خاصة البنات ، وفتحنا باب الفصل وركضنا على السلالم حتى كاد بعضنا يقع فوق الآخر .. وجرينا حتى بوابة المدرسة ونحن فى حالة هيستريا من البكاء والفزع والرعب ، وطلبنا من البواب فتح باب المدرسة بسرعة قبل أن يلحقنا العفريت ذو اليد الحمراء ويأكلنا حيث وصفه هكذا زميلنا اياه ، سامحه الله .

حاول البواب اقناعنا بأن هذا هراء ، ويجب علينا العودة الى الفصل ، لكننا لم نصدقه وظللنا على حالتنا الى أن جاءت مديرة المدرسة واستطاعت ان تجمعنا مرة ثانية وعادت بنا الى الفصل ..

أتذكر هنا أنه كان لنا زميل أقسم لحظتها بأنه لن يعود الىٰ هذه المدرسة (المسكونة) بالعفاريت ، وسوف يتعلم فى البيت ، وسيذاكر له والده العربى والحساب ، وعفاية عليه هذا ، .. بلا همٍّ !! وكل هذا يعود الى تسيب ادارة المدرسة وتركها للتلاميذ الصغار وحدهم يوما كاملا فى الفصل حتى وصلت المسألة الى العفاريت والجن .. ،،

ومع هذا فاننا يمكن أن نضيف الى ذلك تساؤلا : من أين لهذا الطفل مثل تلك الحكايات عن (العفاريت) وشكلها واعتداءاتها على الأطفال ؟ انها ليست من اختراعه وانما هى حكايات نقلها اليه كبار كى يريحوا أنفسهم من حسن الضبط والرعاية ليقوم هذا وذاك على (التخويف) وبث الرعب ، دون أن يدروا الآثار المدمرة لمثل هذه القصص الخرافية على البنية الشخصية لأطفالنا الصغار.

العقاب المخيف :

وتكتب مدرسة أخرى :

،، جاءتنى مرة أثناء عملى بالتدريس أم تلميذ من احدى البلدان العربية حيث كان ابنها تلميذا بالمدرسة ، وتطلب بالحاح ضرب ابنها ، علما بأنه من أحسن التلاميذ ، فقد كان متفوقا . فسألتها عن السبب ، فقالت إن تقدير ابنها هذا الشهر انخفض من (امتياز) الى (جيد جدا) !! فقلت لها أن التقدير الجديد ليس سيئا وانما هو خاص بالمتميزين ، ثم ان امتحان هذا الشهر كانت درجة الصعوبة فيه عالية . لكنها أصرت

على معاقبة ابنها ، ولكنى رفضت ذلك حيث انه لم يرتكب ذنبا حقيقيا يستحق عليه العقاب ، أحضرت التلميذ وقلت له كلمة بسيطة : (ماما جاتنى زعلانة جدا منك وشايفة انك تستحق الضرب ، لكنى مش حاضربك يامحمد ، مع انى أنا كمان زعلانة منك لأنك خذت درجة الشهر ده أقل من درجة الشهر اللى فات ، ومش حانديك الجايزة اللى كانت من نصيبك قبل كده ..) وما كدت أواصل كلامى حتى فوجئت بالطفل ينهمر بالبكاء وقال لى : (معلهش يا مس) ، آخر وأول مرة سوف أذاكر أكثر من الأول) ، وبالفعل عاد الطفل الى ماكان عليه من تفوق .. ترى ، لو كنت قد سمعت كلام أمه وانهلت عليه ضربا ، أكان يمكن أن يعاود التفوق ؟ لا أظن ،، .

واذا كانت هذه المدرسة على درجة من الوعى الذى جعلها تدرك الأثر المدمر للعقاب غير المعقول على الطفل ، فان هناك غيرها يفتقدون مثل هذا الوعى فيوقعون بالأطفال صورا من العقاب المهين غير الأدمى مما لايمكن أن يساعد فى غرس الاحساس بقيمة الانسان فى حد ذاته والاعتزاز بالكرامة الشخصية ، فهذه مدرسة تكتب تحت عنوان : (مدرسة أم معتقل تعذيب) :

،،.. وأنا (تلميذة) فى السنة الرابعة (الابتدائية) كانت مدرسة اللغة الانجليزية تعاقب احدى الطالبات لأنها لم تؤد الواجب المدرسى ، فماذا كان هذا العقاب ؟

أحضرت غلاف كشكول وقامت بقصه على شكل أذنى حمار ، وعلقتها على رأس الطالبة ، ولم تكتف بذلك ، بل وكتبت على ورقة كلمة (بليدة) بالبنط العريض وعلقتها على ظهر الطالبة وأخذتها الى فناء المدرسة وقت الفسحة وجعلتها تطوف في الفناء حتى انتهت الفسحة!!

ان هذا لم يكن موقفا فرديا من مدرسة واحدة ، بل كان متكررا من أكثر من مدرسة :

لقد كن يجمعن ، كل شهر ، الطالبات المتخلفات دراسيا من كل فصل ، مكتوب على ظهر كل طالبة كلمة (بليدة) أو (غشاشة) ، وتطوف فى فناء المدرسة فى طوابير منتظمة ، وتقف باقى الطالبات للفرجة والقهقهة .

والنتيجة؟

كانت نتيجة هذا المنظر البشع الذى شاهدته بعينى رأسى، هو أنى أصبت بحالة ، خوف شديد وكراهية أشد للمدرسة والمدرسين والمذاكرة والتعليم ، ومن هنا فعندها أهم بعمل الواجب المدرسى ، تهاجمنى رغبة شديدة فى النوم ، للدرجة التى كان عندها والدى يمسك بيدى ويكتب الواجب وأنا نائمة تماما !!

والنتيجة فى آخر العام ، هى الرسوب فى كافة المواد التى تدرس باللغة الانجليزية وهى : اللغة الانجليزية ، الرياضيات ، العلوم فضلا عن اللغة الفرنسية كذلك !!.

الاختلاط بالصبيان !!

هى قضية من القضايا الشائكة فى مجال التعليم ، ليس لها وجود بطبيعة الحال فى البلدان الغربية ، لانهم يرون الاختلاط فى جميع المراحل مسألة طبيعية . وهى لاوجود لها أيضا فى عدد من الدول العربية لسبب مختلف تماما وهو منعها منعا باتا فى أى مرحلة ، أما هنا فى مصر ، رغم أن الجدل حولها لم يعد كما كان من قبل منذ عدة عقود ، فان هذه السطور التالية تكشف عن أمور لها آثارها السيئة تربويا ، : تكتب احدى المدرسات عن فترة طفولتها :

،، .. وتكرارا ، ما سمعت من أبى ، يوجه كلامه الى أختى بأن تذهب من المدرسة الى البيت ومن البيت الى المدرسة . وأصحابك فى المدرسة فقط ، وألا تكلمى أى (ولد) فى الشارع ، ولا تتحدثى معه ولاتردى عليه ...

ومن خلال هذه المحاذير أصبحت أخشى الكلام مع أى ولد ، وبالتالى كنت لا ألعب الا مع بنات أقاربنا فقط ...

وكان أبى من النوع المحافظ جدا يخاف علينا ، وبالتالى كانت نزهتى وخروجى لايتعدى الخروج مع أمى لشراء احتياجات بيتنا والذهاب الى أقاربنا ...

وكان أول يوم ذهبت فيه الى المدرسة بصحبة أمى التى دخلت معى الى المدرسة ، وكانت المشرفة تنادى أسماء كل فصل حتى يتعرف كل تلميذ وتلميذة على فصله بحيث كانت تنادى اسم بنت ، ثم اسم ولد .. وهكذا ، فنادت على اسمى فوقفت ، ثم نادت على اسم (ولد) فجاء ووقف بجوارى ، وكان الترتيب : ولد – بنت ، فبكيت بصوت عال، وجاءت المشرفة لتسألنى عن سبب بكائى ، فأجبت : (مش عايزة ولد يقف جنبى ، أنا عاوزة اللى تقف جنبى تبقى بنت) .. لقد كانت كلمات أبى تتوارد على ذهنى وتعلن فى أذنى ألا أتعامل مع الصبيان .. !!

ولم أتوقف عن البكاء الا بعد أن دخلت الفصل وأجلسوا بجواري بنت مثلي ...

كانت المدرسة تقول لأمى عندما تزورنى فى المدرسة : (ان .. شاطرة ، بس المشكلة انها خجولة جدا واذا عرضت أسئلة فانها لاتشارك معنا فى الإجابة . ومن الممكن أن يمر اليوم كله دون أن تتكلم معى أو مع زميلاتها فى الفصل . ولكن اذا

وجهت لها سؤالا ، فانها تجيب عليه اجابة ، غالبا ، موفقة .. ،، ثم تستطرد المدرسة صاحبة هذه الأوراق :

،، .. وبالتدريج بدأت أتكلم مع زميلاتى فى الفصل ، زميلاتى فقط دون زملائى وألعب معهم فى وقت الفسحة .

وكان أبى يرفض ذهابى الى أية رحلة تقوم بها المدرسة ، والسبب الذى كان يقوله دائما انه يخاف علينا ... ،،

ونقلب فى أوراق مدرسة أخرى ، لنجد نفس القضية ، اذ تكتب قائلة :

،، بالنسبة لتجربتى الشخصية ، فلم أحبذ اختلاطى بالبنين حتى فى الفترة الابتدائية ، وذلك لأن والدى كان دائما يحذرنى : اياكى والتعامل مع البنين . لايجب لبنت أن تصادق ولدا . عيب التحدث مع البنين .. وهكذا استقر فى نفسى أن الرجل دائما نو غرض سئ .. حتى فى مرحلة الطفولة المتأخرة هذه .

لاأريد أن أدين والدى ، فهو حقا رجل فاضل ويخاف علىّ وعلى اخوتى ، وقد تكون طبيعة عمله كمحام ، وكثرة مايراه من مصائب ، تجعله يتصرف معنا هكذا .

وبناء عليه تجنبت التعامل مع زملاء الدراسة تماما ولكنهم مع الأسف اعتبروا ذلك غرورا منى ، وما كان الأمر هكذا !! ...

وكانت النتيجة أن نشأ داخلى شعور بالندية مع الرجل ، فكنت دائما أتشاجر مع أقاربى من البنين ، اذا ما حاول أحدهم أن يظهر شيئا من الحرص علىّ أو على شقيقتى، كأن يطلب منى ألا أخرج لشراء شئ مساء وحدى ، وذلك فى مرحلة متقدمة بعض الشئ .

وقد انعكس ذلك على حياتى عندما كبرت وتزوجت ، فكثيرا ما نشبت الخلافات الحادة بسبب هذه (الندية) فى المعاملة ، ورفضى أى توجيه من زوجى ، حتى ولو كان رأيه على صواب ، وذلك فى السنة الأولى من زواجنا ، وكم بذلت من مجهود الى أن تخلصت من بعض الأفكار السيئة حول الجنس الآخر ، فبدأ الاستقرار يعرف طريقه الى حياتى بالتدريج ...

فى الحق،لم أكن جانية على زوجى وعلى أفراد الجنس الآخر من حيث سوء الظن، وانما كنت ضحية خوف زائد وشك دائم فى أى رجل يزوره أبى فى، اعتقادا منه أن ذلك سيجنبنى الرذيلة والخطأ، ونسى أن حسن التربية والخلق القويم ، كفيلان بأن يجعلا منى انسانه قادرة على حماية نفسها ،لاتسمح لأحد بأن يسيطر على فكرها أو عليها .. ،،

هدايا .. !!

الهدية ، رمز من الرموز الاجتماعية التى تعبر عن تقدير أو تهنئة ، لها مناسباتها وأصولها وقواعدها ،لكن بعض صورها المنحرفة بدأت تزحف على مدارسنا فتنحرف بهذا الرمز الاجتماعى الجميل لتكون ، أحيانا (اتاوة) مفروضة ، وأحيانا وكأنها (رشوة) .. الى غير هذا وذاك من صور تخرج بالتأكيد عن حدود (السوية) ، تقول احدى المدرسات باعتبارها أما لواحد من الأطفال :

،،.. هاقد دخلنا في شهر مارس ، لابد أنا وزوجى من أن نستعد لشراء (الهدايا) التى أصبح من المحتم على أبنائنا أن يعطوها (الأبلة) فى عيد (الأم) .. تلك المناسبة التى من المفروض أن تتجه بمشاعر أطفالنا نحو الاعتزاز والحب للأمهات ، تحولت الى أن تكون عبئا ثقيلا تئن من حمله ميزانية كثير من العائلات بسبب مايضطررن اليه أبناءهم من تقديم هدايا لمدرساتهم فى دور الحضانة ورياض الأطفال والمدارس الابتدائية ....

وتستوقفنا عبارة أخرى لاحدى المدرسات كأم عندما أحاطت بابنها بعض المشكلات فى مدرسة رياض الأطفال قولها أن من الوسائل التى لجأت اليها « مراضاة المدرسات بالهدايا المطلوبة ،، !!وتروى مدرسة جاء تعيينها مدرسة فى مدرسة اعدادية مشتركة فى منطقة ريفية عن سلوك ناظر تقول انه كان خريجا من احدى كليات الجامعة (الأزهرية) !!:

،، بدأ الرجل عمله وشغله الشاغل : المجموعات المدرسية : نظامها ، كيفية عملها ، وكم عددها .. كان الرجل قد ذهب الى احدى الدول العربية فى اعارة فذاق طعم جمع المال وكثرته ، فأراد الاستمرار فى عملية (التجميع) ، لا يبالى بأن وسيلة ولا بأى كيفية يحصل على المال المراد .

وكما نعلم فان الادارة التعليمية تحصل علي جزء من حصيلة المجموعات ، فكان الناظر لايخطر الادارة الا بعدد محدود أقل من الواقع ، ويفسر ذلك للمدرسين بأن هذا حماية لهم من (الادارة) وبدأ يفرض ضريبة على كل مدرس مادة ، سواء كان يقوم باعطاء الدروس الخصوصية أم لا ، المهم أنك تدفع له وتتصرف مع التلاميذ كيف تشاء . ومع الأسف وافق المدرسون على ذلك لكسب ود السيد الناظر ولتجنب المشاكل من ناحية ، وتلك هى فرصة أخرى للزيادة فى اعطاء الدروس .. واذا كان هذا هو الشغل الشاغل للسيد الناظر ، فكيف يكون حال المدرسين أنفسهم :

اذا كان رب البيت بالدف ضاربا فشيمة أهل البيت كلهم الرقص !!

واذا كانت هذه بعض صور يندى لها الجبين ، فقد كانت هناك صورة أخرى زاهية مشرقة لتوجه آخر مخالف .. المدرسة هنا هى التى تنفق من جيبها الخاص لتشترى هدايا لأطفال الروضة الذين يجتهدون فى دروسهم والذين بالسلوك الطيب ، تقول هذه المدرسة :

،، .. كنت أخصص للتلميذات جزءا من مرتبى شهريا لشراء جوائز للعشرة الأوائل بالفصل ، وكانت هناك أعداد مكررة ، فغالبا مايكون العشرة أكثر من نصف الفصل . هذا بالاضافة الى وجود درج خاص فى دولابى ، به من الهدايا الصغيرة الغالية الثمن (أقلام – أساتيك – لعب أطفال صغيرة .. شيكولاتة .. الخ) لتشجيع المستويات المتوسطة والضعيفة اذا شاركت فى المناقشة أو عملت أى شئ ولو كان ذلك الشئ بسيطا ، أو اذا أبدعت احدى التلميذات فى حل مشكلة ما ، أو أجادت فى أى شئ ، لذلك كان الفصل بمثابة خلية للنحل .. ،،

كان السرالأساسى وراء سلوك هذه المدرسة (عشق) و (ولع) شديد بمهنة التدريس!!

أغيثونا .. من الغش !!

هى ظاهرة اجتماعية وتربوية مرضية تفشت منذ سنوات بشكل لاينبغى أن نقف مكتوفى الأيدى أو غير مبالين بمدى ما تمثله من قوة تدميرية على البنية الشخصية لأبنائنا خاصة والمجتمع كله عامة . كنا نلاحظها قبل ذلك ، مستنكرين ، مسألة (فردية) يمارسها واحد او اثنين ممن لايشكلون خطورة على القاعدة العامة ، وفى بعض الأوقات المتفرقة ، لكننا نلاحظها الآن لدى (كثرة) ، وفى معظم الأوقات . والأدهى والأمر ، أن تتم فى بعض الأحيان تحت سمع وبصر مسؤلين بمدارسنا ، ومباركة أباء وأمهات .. وها هى أوراق مدرسات تحكى أطرافا من الحكاية ، بل قل ، الكارثة :

فبعد أن تصور مدرسة مظاهر النظام الصارم الدقيق فى احدى المدارس وتجئ الى مسألة الغش تجد ،، ان الأمر يختلف تماما فى الامتحانات .. الغش عام للجميع ، والكتابة فى ورق الاجابة لأصحاب الحظوة .. لامانع من كتابة الاجابة على السبورة اذا لم تجد الاملاء الجماعية من نماذج حل تعدها المدرسة صاحبة المادة بالكربون وتوزعها على اللجان . وحتى امتحان الابتدائية الذى يشرف عليه مدرسون من خارج المدرسة ، فانه فى هذه الفترة تم التفاهم مع البعض ، فكانت مدرسات المدرسة الأساسيات يجلسن فى مكان يفصله عن اللجان حائط خشبى ، تقوم (الدادة) بتسريب ورقة أسئلة من

خلاله لمعلمة المادة التي تقوم بحلها وتساعدها الباقيات فى عمل نسخ بالكربون ، ثم تأخذها الدادة لتوزعها على اللجان لتملى على التلاميذ .. وغير ذلك مما يجعل التلاميذ فى العام التالى لايقبلون على المذاكرة بحماس .. ،،

ومدرسة أخرى تحكى عن فترة تلمذتها فى احدى المدارس فتكتب :

،، .. لاحظت ملاحظة غريبة جدا (فى لجنة الامتحان) اذ كانت المراقبة فى أول الامتحان حازمة جدا ، وبعد مرور بعض الوقت تأتى مدرسة الى المراقبة وتوصيها على طالبتين باللجنة حيث أن هاتين الطالبتين أمهاتهما مدرسات بالمدرسة ، فتصبح اللجنة مرتعا للغش ، وكتابة الاجابات على ورق الأسئلة ، ثم مبادلته بين الطالبات ، بل ان الأمر لايتوقف عند هذا ، اذ تذهب المراقبة الى هاتين البنتين وتسألهما اذا كانتا تحتاجان شيئا ..،،

وفى سنة دراسية أخرى تحكى نفس المدرسة عن فترة تلمذتها فتكتب :

،، .. وحدث موقف أثناء امتحان اللغة الانجليزية ، فبينما كنت أجيب على أسئلة الامتحان وقاربت على الانتهاء ، اذا بمدرس يدخل اللجنة ويملى أسئلة الامتحان واجاباتها على الطالبات بصوت عال .. » !!

واذا كان هذا يتم فى المدارس ، فماذا عن (الكليات) ؟ كتبت احدى المدرسات عن فترة تلمذتها فى احدى الكليات :

،، .. أما عن الامتحان فكان مهزلة كبرى ، حيث كان يعقد فى مدرج كبير مقسم الى لجان تجلس فيه كل الطالبات ، وكل لجنة عليها اثنتان من المراقبات ، بعضهن متسيبات يتركن البنات للغش من الكتب ، بل اننى أذكر ان احداهن وقفت تملى الطالبات من ورقة فى يدها مما صرفنا عن التركيز ، وكانت مشكلة كبيرة ... ،،

ثم نصادف مدرسة (أما) نادرة ، تتمسك (بالأصول) ، فاذا بها تعرض ابنها لمتاعب !!

تكتب هذه الأم المدرسة :

« ولأننى غرست فى أولادى مبادئ الأخلاق والقيم وعلمتهن مايدعو اليه ديننا الحنيف بالنهى عن الغش (فمن غشنا فليس منا) فان أولادى كانوا يرفضون أن يكتبوا مايملى عليهم (أثناء الامتحان) لأن هذا غش وحرام ، فكان جزاء ابنى الضرب والسب ، واتهامه بالغش وعقابه بسحب ورقة اجابته وحرمانه من الامتحان بالاضافة الى تهديده بالحبس فى الفصل طوال اليوم لأنه بليد وغشاش .. هذا كان موقف المدرسة من طفل

فى الصف الثانى الابتدائى وهو طفلى .. »

كانت الأم المدرسة تنتظر طفلها خارج المدرسة ، فجاء اليها يبكى منهارا فلما استفسرت منه عن السبب وحكى لها ، وقابلت الناظرة ، برزت الناظرة ما حدث بان الطفل بالفعل غشاش ، واستشهدت بمدرسته ، فلما سألتها الأم اذا كانت بالفعل قد عهدت فيه من قبل الغش ، أجابت أنه ممكن أن يغش عندما لايعرف الاجابة ، فثارت الأم وردت على المدرسة : " .. اذن كنتى تضحكين على وتخبرينى بأنه عبقرى وذكى وممتاز فقط للحصول على الدروس والهدايا ،، !!

وأصرت الأم على أن يختبر ابنها ويمتحن وحده أمام الجميع لأنها بالفعل تريد طفلا سويا ، وتم لها ما أرادت ،، وصححت له الناظرة بنفسها وحصل على الدرجة النهائية بالرغم من أن السؤال الذى أملته عليه المدرسة لم يكن من ضمن ما درسه فى المدرسة ..!!

سفر الأب :

كذلك فقد عرف مجتمعنا منذ الطفرة النفطية سفر العديد من الآباء أو الأمهات للعمل بالخارج مع ترك الأبناء هنا فى مصر مع أحد الوالدين أو مع أحد الاقارب ، والدافع الأساسى مشهور ومعروف وهو السعى وراء الرزق ، لكنهم من ناحية أخرى اذا كانوا يكسبون (مالا) ، فهم كثيرا ما يخسرون (أبناء) الا من عصم الله ، مع ترديدهم للمقولة الشهيرة بأنهم اذ يتغربون ويشقون ، فانما يفعلون ذلك من أجل أبنائهم.

وها هى مدرسة تحكى عن سفر زوجها بعد شهر واحد من زواجهما من أجل أن يقدر على (تأسيس) أسرته : ،، فهى ليست مشكلتى أنا وحدى ، بل آلاف من الشباب .. شاء قدرنا أن نكون معاصرين لهذه الفترة التى يعتبر شبابها منكوبا .. فأنا أعتبر نفسى زوجة بالمراسلة .. فزوجى مدرس هو الآخر ، وكلنا يعلم أن الموظف بصفة عامة والمدرس بصفة خاصة لاينال ما يكفيه ويضمن له سبل العيش والحياة الكريمة فاضطر كثيرون للدروس الخصوصية . ولأن زوجى يرفض هذه الدروس ، فقد فضل ان يسافر لاحدى الدول العربية للعمل بها لنكون أنفسنا بعد شهر واحد من زواجنا .. وتركنى لأعيش مع أسرتى مدة عامين فلم نأخذ الفرصة الكافية ليتعود كل منا على الآخر .. ناهيك عن المعاناة النفسية التى يقاسيها كل منا ، فهو زوج وليس بزوج وأب وليس بأب ، وأنا زوجة وأم مع ايقاف التنفيذ ، ولم أتعود أيا من واجبات الزوجة والأم لأن والدتى وجميع أفراد الأسرة يقومون عنى بكافة متطلبات ابنتى ..

انها صرخة بلا أمل ، يطلقها الكثير من الشباب برجاء التفضل ورحمتنا من عذاب هذه الحياة المشتتة ..

وها هى مدرسة أخرى ، تتذكر فترة طفولتها ، حيث توفيت أمها وسافر والدها للعمل بالخارج وتركها لاحدى القريبات تربيها وهى لم تتجاوز بعد العام الثالث من عمرها ،، .. كان أبى - سامحه الله كثير السفر للخارج للعمل ولغير العمل . كان يأتى فى نهاية كل عام يرى النتيجة ويقول لى : لماذا لم تطلعى الأولى على المدرسة ؟ ما هذا المجموع ؟ ثم بعد ذلك يقول : مبروك !! ولكنه نسى دور الأب والوحدة التى أنا أعيشها طوال العام وحرمانى منه .. لم يخطر بباله انى منذ صغرى لم أجد ولم أسمع أحد يقول لى اهتمى بمذاكرتك ، بل كنت أهتم أنا بها دون أن يوجهنى أحد ...،،

فلما أتمت صاحبتنا المدرسة الابتدائية والتحقت بالمدرسة الاعدادية وهى فى نفس الظروف ، شاءت ارادة الله أن تقيض لها مدرسين أحاطاها بالكثير من العناية والاهتمام، فكتبت عن هذه الفترة تقول : « .. وأحمد الله على أنه جعل أمامى هذين المدرسين الذين كانا يشجعانى وعوضانى كثيرا عن افتقادى أى تشجيع من أبى وغيابه وانشغاله فى السفر للعمل . وكانت مرحلة الاعدادية مرحلة حرجة بالنسبة لأى فتاة وهى مرحلة المراهقة وبداية البلوغ ، فقد كنت كثيرة الاحتياج لأبى فى هذه المرحلة .. »

ويغرق الأب ابنته بالهدايا والأموال ظانا أنه بذلك يسر احتياجاتها ، صحيح أنها احتياجات هامة وضرورية ، لكن لايقل عنها أبدا ، وربما تتفوق ، تلك الاحتياجات (المعنوية) (التربوية) .. دفء الأم .. حنان الأبوة ورقابتها المستمرة . تقول صاحبتنا :

«كان أبى يشترى لى كثيرا من الملابس الجميلة من الخارج ويغدق على المال ، فقد كنت مرفهة الى حد ما ، ولكن يعلم الله أن كل هذا لم يعوضنى عن غياب أبى ورحيل أمى . ثم جاءت صدمة كبيرة على حينما علمت بزواجه من أمراة أخرى فى احدى البلاد العربية .. أخفيت أحساسى بالألم بداخل قلبى وفرغت همى كله فى دراستى واهتممت بمذاكرتى أكثر وأكثر لكى أشغل نفسى من التفكير فى هذه الدنيا التى جعلتنى أشعر بالوحدة وأنا فى بداية سنوات عمرى الأولى ...»

واذا كانت هذه المدرسة قد استطاعت أن تتجاوز هذه الوحدة بعيدا عن (الأب) و(الأم) ، بل وتجعل منها دافعا للمزيد من العمل المتواصل الشاق لتعوض به ماتعانيه ، فان كثيرين وكثيرات من الأبناء لم يستطيعوا ذلك ، ووقعوا فريسة للفشل والجدب العاطفى الذى يعتبر تربة خصبة لزرع الحقد والغل والرغبة فى الانتقام من المجتمع ممثلا فى بعض رموزه ومؤسساته ، ويحصد المجتمع (عملة صعبة) من الدولارات

والاسترليني ويخسر عملة أصعب من البشر !!واذا كان هذا يحدث بالنسبة لأولياء الأمور الذين يسافرون للعمل بالخارج تاركين أبناءهم فان هناك من الآباء من يتركون أبناءهم على الرغم من اقامتهم معهم فى مصر !!، وها هى مدرسة تكتب عما لاحظته بشأن طفلة بمدرسة ابتدائية خاصة :

« كانت لدى طفلة ، يعمل والدها مدرسا للغة الانجليزية بمدرسة ثانوية ، ولم أكن أصدق ان تصل ابنته هذه الى تلك الدرجة من الاهمال ، وظل السؤال يحيرنى : لماذا ؟ وطلبت حضور ولى الأمر أكثر من مرة ، فلما حضر وسألته : لماذا كان هذا الاهمال ؟ كانت اجابته :« ليس عندى وقت !! كل يوم أدخل البيت الساعة الثانية بعد منتصف الليل، فلا أستطيع رؤية أطفالى نظرا لظروف المعيشة » .. فطلبت منه الانتباه الى ابنته ، ولم يبد اهتماما بعد ذلك بها !! .

دروس خصوصية :

وفى هذا الباب أحاديث كثيرة وطويلة يمكن أن تملأ وحدها عددا كبيرا من الصفحات ، ولكنا نجتزىء منها بعض السطور من أوراق مدرسات . كتبت واحدة عن فترة تلمذتها بالمدرسة الابتدائية :

« كانت أمى تداوم على سؤال مدرساتى ومدرسى عن مستوياى .. ورأيت معظم من حولى بالفصل يأخذون دروسا خصوصية ، .. ورأيت التغيير فى المعاملة لمن تأخذ درسا ، فبعد الضرب الذى كانت تتلقاه التلميذة والتهديد واللوم ، أصبح المدرس يعاملها بلين وعطف ، وذلك عندما تأخذ درسا خصوصيا لديه.. فقررت أن آخذ (مجموعة) بالمدرسة. وأعترف بأن هذه المجموعة لم تضف الى شيئا جديا (علمي)....،

فلما انتقلت صاحبتنا الى المدرسة الثانوية ، كتبت عنها قائلة : ،، أعلنت مدرسة الرياضيات عن وجود مجموعة بالمدرسة ، فالتحقنا بها أنا وزميلاتى بالرغم من أننى حصلت على درجات مرتفعة فى مادة الرياضيات فى الشهر الأول ، وكان سبب التحاقنا هو احساسنا بالتهديد من جانب المدرسة وعقابها الطالبات اللاتى لا يلتحقن بالمجموعة..!!

ولن نستطرد طويلا فى هذا الباب ، فمعظمه حكايات تدخل فى باب (المآسى) و(المهازل) لكننا لانستطيع أن نتركه دون الاشارة الى ذروة مأيؤسف ، عندما نجد أن الدروس قد وصلت الى مرحلة الحضانة التى هى أصلا ليست مرحلة (تعليم) مواد دراسية ، بل (تربية) من خلال اللعب والنشاط .فها هى مدرسة أم تشكو مر الشكوى

من سوء معاملة طفلتها فى احدى دور الحضانة ثم تعقب : ،، .. ولكى يتقى ولى الأمر شرهن (العاملات فى الحضانة) ويجعلهن يهتممن بالأولاد ، عليه أن يستسمح (الابله) أن تتعهد طفله وتعطيه دروسا خصوصية .. أى والله دروسا خصوصية فى الحضانة .. والحصة : ساعة بعشرة جنيهات ، والمطلوب ساعتان يعنى بعشرين جنيها لطفل ضمن مجموعة من الأطفال مكونة من عشر أطفال .. هذا بالاضافة للهدايا فى مختلف المناسبات .. غير ماتطلبه من الأدوات المنزلية .. وأدوات الزنية والملابس والحلى ..» صدق أو لاتصدق !!

ان قيمة هذه الأوراق مرة أخرى هى (لارسميتها) و (خصوصيتها) مما يجعلنا نرى صورة واضحة (ميكروسكوبية) مهما امتلأت بما يؤلم ، فانها ضرورية لمن يسعى الى الأصلاح والتطوير .